﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾ ﴾ . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة [1] في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يبشّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] . انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٧).

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون فى الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلّى، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشىء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشىء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاصٍ وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاصٍ وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا** ﴾ أي : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّي لنا ذلك كله في الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له في الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء في الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا في المكان الذي شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى فى المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع فى دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلتقى بهم فى المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون فى شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة [1] .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخِذَ أنداداً [2] ، والمُتَّخَذَ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ،ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ،أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ،أو جنّاً

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٩) والبخارى (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهى يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشباهاً . وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن.

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم فى ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ **إذْ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا .. (١٦٦)** ﴾ [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ **أأنت قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِى وأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ من دُونِ الله .. (١١٦)** ﴾ [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ **سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إن كُنتُ قُلْتُهُ فقدْ علمتَه .. (١١٦)** ﴾ [المائدة]

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة [1] . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ولقدْ خلقْناكُمْ ثُمَّ صوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا للْملائكة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليس لمْ يكُن مّن السَّاجدين (١١) قَالَ مَا منَعكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ قَالَ أنَا خيْرٌ مّنْهُ خلقْتني من نَّارٍ وخلقْتهُ من طينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة [2] موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المحاجَة : المغالبة والجدال . والحُجَّة : الدليل والبرهان . وحَجَّه وحَاجَّه : غلبه على حُجَّته . قال تعالى : ﴿ فإن حاجُّوك فقلْ أسلمْتُ وجْهي لله .. (٢٠) ﴾ [آل عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحُجَّة حُجَّة ؛ لأنها تُحَجّ ، أى : تُقصَد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجَّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة (حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم[1] .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هى التى تمكّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلّط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف فى حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس فى الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

---

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلَصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم فى سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦١) وصححه وأقره الذهبى .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم منَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله ... منَ القائمينَ بالأسْحَار [1]»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً ... فَغَدَوْنا لَهُم وَقُودَ النار»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا ... على ابنِ مَرْيم والحَوَارِي [2]»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول:

إن للمُغَالِي جَزَاءهُ ، والمُغَالَى ... فيه تُنْجيه رحمةُ الغَفَّار».

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

(١) الأسحار : جمع السَّحَر وهو آخر الليل قبيل الصبح. لسان العرب (مادة سحر). والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل.

(٢) أي : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذي ينقى من اللباب. (اللسان : مادة حور).

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ..(٢٨)﴾[1] [يونس]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون فى الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع فى الدنيا أن فى الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفضح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهمَ جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ..(٢٨)﴾ [يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعنى : «الزمْ مكانك» وهى لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون فى صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، فهل يعنى ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة فى موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ،ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾[2] [يونس]

---

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب . ومنه يوم المَحْشَر . والحَشْر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ..(٢٠٣)﴾ [البقرة].

(٢) زيَّلنا بينهم : فرَّقْنا بينهم . والتَّزايل : التباين . قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح][اللسان : مادة (ز ى ل)].

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبِدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨)﴾ [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المُخْزِى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدرى به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضًا على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدَّل فى الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل فى الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات [1] ؟

وهذا أمر غير منطقيّ - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث فى الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف فى الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف [2] بين السماء والأرض. وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ.. (٤٨)﴾ [إبراهيم]

إذن : فكل شيء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إذن : فالكائنات التى عُبِدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً فى الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح المسك ، يُلْهَمُون التسبيح والتحميد». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٦٤).

(٢) أى : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة فى كل منهما.

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى[(١)].

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب.

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ..(٤٠)﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكةُ بقولهم : ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. (٤١)﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سُوَر القرآن الكريم عرضاً منشوراً[(٢)] مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم[(٣)] مِّنَ الْإِنسِ ..(١٢٨)﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .. (١٢٨)﴾ [الأنعام]

---

(١) وذلك في قصة الهدهد مع سليمان : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل].

(٢) المنثور : الشيء يُلقى متفرقاً هنا وهناك كالحَبِّ وغيره. [اللسان : مادة نثر].

(٣) أي : أضللتم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن.

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواصٍ الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

وأعطي الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين. وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌ[2] ، أي : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة.

بمعنى : أنك لو كنت تجلس في حجرة ، وخلف ظهرك في الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالساتر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة.

أما لو كانت هناك تفاحة - وهي مخلوقة من الطين - موجودة في الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك.

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه. وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجِرْمَ[3] إلى المكان الذي توجد فيه.

---

(١) القَبِيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى ، كالعرب ، والروم ، والزنج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وكل جيل من الجن والناس قبيل. قال تعالى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)﴾ [الإسراء]. [اللسان : مادة (قبل)].

(٢) قار : أي : مستقر في مكانه لا ينتقل منه شيء إلا إذا نقلته أنت. يقال : فلان قارٌ ، أي : ساكن ثابت. (اللسان : مادة قرر).

(٣) الجِرْم : الجسم. والجمع (الأجرام).

ونلمح هذه المسألة التقنينية فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير فى الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتى لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو فى مجلسه : ﴿ **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ..(٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان فى مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين فى قدراتهم ما قال : ﴿ **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي** .. (٣٨) ﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن - لا جناً عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ،ومنهم من هو ذكى ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضًا ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** .. (٣٩) ﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات [1] ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذى يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادى - ممن كان حاضراً مجلس سليمان- فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس فى قدرته ، أما الذى تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب، فقال : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** [2] .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ **فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي** ..(٤٠) ﴾[النمل]

---

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس فى مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .
(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس [١] ، ولم يأخذ الجنّى خواصَّه فى الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس.

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً [٢].

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ .. (١٠٢) ﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس.

---

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه النارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلَّى ذلك فى أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهى ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار.

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن] أى : ذلة وضعفاً. قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٨).

ولكن الملكين هاروت وماروت [1] حينما علّما الإنسان السحر حذّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلّمته فذلك لتقىَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتى لك إنسان ليُودِعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكى هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحمّلها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتمَن خاضعٌ لخيار المؤتمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا فى هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلنَا مقهورين ولا اختيَار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبلَ الإنسان حَمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظَنَّ فى نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسى ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ **اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقَسَم إبليس اللعين : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ**(١) **أَجْمَعِينَ** .. (٨٢) ﴾ [ص]

---

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصافات] . [اللسان : مادة (غوى)] .

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ..(٦) ﴾ [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع [1] أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه .

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَر الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاَّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ [2] ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه . و«أكتع» يجيء فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمعَ أكتعَ . [المعجم الوسيط : مادة (كتع)].

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار . والجمع : المثاوى . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)].

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذى استخدم الجن ، وللجن الذى أغوى الإنس.

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى فى هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ **الأَخِلاَّءُ** [1] **يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** (٦٧) ﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التى يجمع أفرادها صحبة ومودَّة ، ويتخلَّل كل منهم حياة الآخر. وأنت تجد الناس صنفين:

أناساً اتخذوا الخُلَّة [2] فى الله تعالى، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم فى إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه » [3] وهذا لون من الخُلَّة.

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصى ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ** .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء فى الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق . قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .. (١٢٥) ﴾ [النساء] . وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) ﴾ [الفرقان] . [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٢) الخُلَّة : الصداقة والمحبة . والخِلّ : الوُدُّ والصديق . [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٣) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠).

يجتمعون فى الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا [1] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [2] .. (٢١)﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ [3] إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ [4] .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

---

(١) الجَزَع : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠)﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)].

(٢) محيص : مَهْرَب . قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)].

(٣) السلطان : سلطان القهر فى قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدهد : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل].

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨)﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣)﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)].

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبِد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا [1] الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهيِّىء الانحراف إلى ما يريد [2] .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿مَكَانَكُمْ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) احشروا : اجمعوا . والحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب . [اللسان : مادة (حشر)] .

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] .

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات]

أي: كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أيّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء.

إذن: فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه في قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[1] (٦٧)﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله في الدنيا ، فلا يختار الخليل الذي يزيِّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذي يعينه على الطاعة.

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ[2] نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذي أحببته فيَّ» ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساكر.

(٢) عن علي بن أبي طالب أن ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا .. (٢٩)﴾ [فصلت] في الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذي قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصي في الأرض. ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٨).

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا[1] عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذى عُبِدَ، وحتى الأصنام، من الذين عَبَدُوهم فى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا[2] كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يعنى: فى هذا الوقت، أو فى هذا المكان. والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان، فإن كان الزمان هو الغالب، فيأتى ظرف الزمان، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتى ظرف المكان.

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

أى: فى ذلك الوقت الذى قالت فيه مريم - رضى الله عنها - قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذى يأتى لها بالطعام، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلِّمه هى. يقول

---

(١) إنْ كُنَّا: أى: ما كنا. فإنْ هنا للنفى، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ...﴿٢٠﴾﴾ [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة].

(٢) ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [يونس]: تذوق جزاء ما عملت وقدَّمت. وقيل: تختبر. وقيل: تتبع، أى: تتبع كل نفس ما قدَّمت فى الدنيا. وقرأ حمزة والكسائى «تتلو» أى: تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتب عليها. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير [٢/ ٤١٦].